الروائي العراقي أحمد سعداوي في حوار "أوراق فلسطينية":

أكتب عن العراق المعاصر .. والشعب الفلسطيني لن يقهر

حاورته بديعة زيدان

قال لي الروائي العراقي أحمد سعداوي أنه، وبعد "فرانكشتاين في بغداد"، الفائزة بالجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) العام ٢٠١٤، "تتملكني فكرتان لروايتين لم أقر بعد إلى أي منهما سأنحاز، وربما أتجاهل الاثنتين، حيث سبق لي أن كتبت سبعين صفحة في إحدى الروايات، ثم عدلت عنها وأهملتها .. صحيح أنهما تختمران جيداً داخلي، لكن الأمور لم تتبلور بعد، وتحتاج كل منهما عند اتخاذ قرار الانحياز إليها دون الأخرى إلى عمل طويل، وبحث معمق، كعادتي في روايتي السابقة"، ثم قال لاحقاً إن "روايتي المقبلة فيها محور أساسي قائم على علاقة حب معقدة، ولكن ليست هي القصة الوحيدة في الرواية"، ويبدو مما علمت منه مؤخراً، أن الرواية المنجزة وتحمل اسم "باب الطباشير"، هي ليست الأولى ولا الثانية ولا حتى الثالثة، وهو ما يعكس حالة خاصة لروائي تتملكه الكثير من الهواجس عند الكتابة، بل والرعب أحياناً، وله طقوسه التي تجعله مغايراً كما هي آراؤه العميقة.

وعن رواية "باب الطباشير"، قال في حواره مع "أوراق فلسطينية": باب الطباشير هي الباب المرسوم على الحائط بالطباشير، باب الحلم والوهم. الذي لا يفتح، ولكن، كما تقول الرواية، لا نريد ان نتخلى عنه، ونضعه دائماً ضمن خياراتنا .. الرواية بشكل عام ستكون كبيرة الحجم، أكثر من ٣٥٠ صفحة من القطع المتوسط، وتجري احداثها عبر ٢٠ فصلاً في بغداد في زمن معاصر، وكما في رواياتي السابقة فإن للخيال مساحة كبيرة في هذه الرواية، وهي تروي بالاساس قصة حب، داخل مزيج بوليسي وفانتازي واحالات سياسية واجتماعية. . أخذت مني "باب الطباشير" جهداً ووقتاً طويلاً بكل تأكيد، وأتمنى أن تحظى بقبول القراء واعجابهم. خصوصاً اؤلئك الذين أحبوا رواياتي السابقة،

ويترقبون إصداري الجديد، وآمل أن انتهي من المراجعة الاخيرة لها لتصدر خلال هذا الصيف. وأحمد سعداوي روائي وشاعر وسينارست، ولد في بغداد العام ١٩٧٣... أصدر في مجال الشعر "الوثن الغازي" العام ١٩٩٧، و"نجاة زائدة" العام ١٩٩٩، و"عيد الأغنيات السيئة" العام ٢٠٠١، و"صورتي وأنا أحلم" العام ٢٠٠٢ .

وأصدر من الروايات "البلد الجميل"، وحاز عنها العام ٢٠٠٥ على الجائزة الأولى في فرع الرواية بمسابقة الصدى الإماراتية بدبي، ورواية "إنه يحلم أو يلعب أو يموت" العام ٢٠٠٨، وهو الفائز بمسابقة هاي فاستيفال العالمية ومقرها لندن، فيما كان اختير ضمن أفضل ٣٩ أديباً عربياً دون سن الأربعين في مشروع "بيروت ٣٩" العام ٢٠١٠، وكذلك حصل على الجائزة الأولى في مهرجان الصحافة العراقية عن فئة "الريبورتاج" العام ٢٠٠٤، وبالتالي فإن "فرانكشتاين في بغداد" الفائزة بالجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) ٢٠١٤، هي الرواية الثالثة في مشواره كراوٍ محترف، علاوة على كونه عمل مسبقاً كمعد برامج وأفلام وثائقية، وهو رسام له تجارب عديدة في مجال الفن التشكيلي.

• تبدو رواية "فرانكشتاين في بغداد" أكثر من ثلاثية الأبعاد .. ألم يشكل ذلك تحدياً لك؟

روايتي تشتغل على خمسة مستويات: المستوى الواقعي والمجتمعي السياسي، والمستوى الفانتازي، والمستوى الميتافيزيقي، والمستوى البوليسي، ومستوى الرعب، والتحدي، كيف أسيّر هذه المستويات معاً خلال الرواية، ففي المستوى المجتمعي السياسي تتحدث الرواية عن العراق في فترة ما بعد سقوط نظام صدام ودخول الاحتلال الأميركي وما تبعها من متغيرات في العراق.

أما المستوى الفانتازي فتمثل من خلال حكاية "الشسمه" (فرانكشتاين البغدادي)، ودائرة المتابعة والتعقيب حيث تم توظيف منجمين (من يتنبأون بالمستقبل).

أما المستوى الميتافيزيقي فتمحور حول مناقشة فكرة المخلص من خلال مجموعة أفكار ذات بعد لاهوتي وديني مرتبطة بفكرة المخلص، وكيف أن فكرة الخلاص يجب ألا تكون معلقة برقبة شخص واحد، وحينما يتجه شعب ما إلى فكرة المخلص فإنه يحوله إلى دكتاتور .. نحن في العراق لدينا تجربة مريرة في إنتاج الدكتاتوريات، وللأسف ما زلنا نسير على النهج نفسه .. هذا يجب أن يتوقف، فلا يوجد شخص بمفرده يخلص شعباً بأكمله.

• وماذا عن اسم الرواية؟

منذ بداية كتابتي للمسودات الأولى للرواية كان الاسم يلازم العمل، ولاحقا، أي بعد ثلاث سنوات شعرت بالملل من الاسم فحاولت تغييره ..ووضعت عدة مقترحات، ولكني وجدت في النهاية، أن

اسم "فرانكشتاين في بغداد" مرتبط بشكل عميق مع الرواية وتفاصيلها فأبقيت عليه.

• كل هذا ... ؟!

كتابة الرواية عمل مرهق ويحتاج إلى بحث كبير .. الرواية توجب الإبقاء على إيقاع نفسي واحد لفترة زمنية طويلة، وهذا أمر صعب للغاية، ولذلك فإن كتابة الرواية الجيدة تحتاج إلى وقت طويل، وزيارات ميدانية، وإجراء مقابلات، فيجب عدم الاعتماد على "النت" فحسب.

على سبيل المثال، في روايتي احتجت معلومات عن المسيحي الاثوري للكتابة عن العجوز الآثورية أيليشوا "أم دانيال"، وغيره، وبما أنني أقابل العديد من أفراد هذه الأقلية المسيحية بشكل يومي، كان يجب أن اعتمد على أحاديثي معهم، ولا داعي لاستخدام "النت".

الروائي بداخله باحث، فالرواية لا تقدم فقط متعة جمالية وإنما تقدم معرفة.. نحن العرب نعاني نقصاً هائلاً في المعرفة، وعلى الروائي أن يساهم في زيادة التوعية وتقديم المعرفة.. إذا شعر الروائي أنه يعلم كل شي فهذه مشكلة خطيرة.

خلال فترة كتابتي للرواية كنت أزور حي البتّاوين، الذي تدور فيه أحداث الرواية، كثيرا، وأتحدث إلى السكان هناك.. كنت أتفحص كل شي.. أحصي عدد السلالم، وأتفحص الجدران، ونسبة رطوبتها، وكأني مهندس معماري، لأحاول أن أتصور حجم الدمار الذي سيخلفه تفجير ما في هذا المكان.

• هل سارت معك "فرانكشتاين في بغداد" بسلاسة دون عقبات؟

بالطبع لا .. أعددت أربع مسودات للرواية، بمعنى يمكنني القول إنني كتبتها أربع مرات .. وبعد الانتهاء منها عرضتها على عدد من أصدقائي المهتمين داخل العراق وخارجها، وكان أن أثنوا عليها، ولم يقدموا نصائح جوهرية تتعلق بالبنية والتركيب وحتى اللغة، إلا ما ندر.

ما يسعدني أن أكثر قراء الرواية ومبتاعيها هم من فئة الشباب كما علمت، مع أنها قرئت من عدة أجيال، إلا أن التفاعل الأكبر معها كان من جيل الشباب، وذلك لربما كون الرواية تتحدث عما يجري في العراق، وما يهم الشباب داخل العراق .. في الرواية طرحت وجهة نظري الخاصة فيما يجري في العراق، بعيداً عن الصورة النمطية التي يصورها الإعلام، العربي منه والغربي، لذا تقصدت أن أقول شيئاً جديداً لم يقله الإعلام.

يسعدني أن فوز الرواية بجائزة البوكر ساهم في انتشارها بشكل أكبر، وهذا ساعدني على نقل صورة مغايرة عن العراق إلى العالم بأسره، وساعدني في نقل صورة حياتية عما حدث ويحدث في عراق اليوم إلى العالم، وخاصة العرب.

تقنية وجدليات وإسقاطات

• وماذا عن التقنية؟

الآلية المتبعة في الرواية، أو منطقة الاشتغال في رواية تأتي ضمن منطقة اشتغال روايات ما بعد الحداثة، وبشكل شرعي ومعروف في روايات ما بعد الحداثة عالمياً، وأعني هنا تقنية "الاقتباس"، أو "التضمين"، فحينما تأخذ مفردة من نص أدبي أو تاريخي، وتعيد توظيفها في نص جديد، هنا المفردة القديمة تكتسب معاني جديدة، وبشكل عام فإن تاريخ الأدب هو إعادة إنتاج لنصوص وأفكار سابقة، فلو اشتغلنا على إحصائية حول توظيف حكاية شهرزاد وشهريار، الثنائية الأساسية في "ألف ليلة وليلة"، سنرى أن نصوصاً كثيرة اشتغلت عليها، في محاولة لإعادة إنتاجها بإطار جديد، وبمعنى جديد، حتى إن بعضها تناولت الأنثى من خلال الحكاية، ومحاولاتها في الانتصار على قدرها في مواجهة السلطة الذكورية .. هذه التقنية موجودة في الرواية الحديثة (الاقتباس والتضمين).

ما حدث في "فرانكشتاين في بغداد"، أنني استعنت بمفردة "فرانكشتاين" من أفق أدبي غربي تماماً، ومرتبط بمجموعة أفكار ذات علاقة بالعلم وخلق إنسان جديد تتعلق بالقرن التاسع عشر، وأعدت توظيفها في بيئة مختلفة تماماً، حيث باتت المفردة تقصد شيئاً آخر، وتحيل إلى واقع اجتماعي وثقافي عربي، وعراقي تحديداً.

• تبرز في الرواية جلياً جدلية الضحية والجلاد، وتوحدهما ...؟!

عملت في الرواية ما بين الأعوام ٢٠٠٨ و٢٠١٣، وهي الفترة التي لم يكن فيها "الربيع العربي" رائجاً، بل كان الموضوع العراقي هو "الأسخن" في المنطقة، فتحدثت عن وضع عراقي بحت، لكن النموذج العراقي لاحقاً تكرر في مختلف البلدان العربية، حيث طرحت الرواية ما يمكن وصفه بالحدود الفاصلة بين المجرم والضحية، والكيفية التي من خلالها يمكن أن أطمئن إلى أنني مجرد ضحية، واستحق الشفقة والتعاطف، وأن لا علاقة لي بالجرائم المرتكبة في الشارع.. هل هذا الوصف ينطبق ويصدق علينا أم لا، أم اننا مشاركون في صناعة الجريمة دون أن نشعر بذلك؟!

هناك من يمسك بالسلاح الناري ويضغط على الزناد ويبطش به مباشرة، وهناك من يؤيدون عمليات القتل، وتريحهم فكرة الثأر والانتقام، ويطبقون عدالتهم الخاصة، أو مفاهيمهم الخاصة عن العدالة باعتباره مفهوماً مطلقاً حولها .. هؤلاء جميعاً مشاركون في قتل الضحية التي تسقط في الشارع، حتى وإن لم يضغطوا على الزناد بشكل فعلي.

كقراءة اجتماعية وثقافية وسياسية، وقعنا في هذا المطب بالعراق، وهو مطب أخلاقي، فكلنا نصرخ بأننا ضحايا، ولكن يبقى السؤال: من يرتكب الجرائم إذا كنا جميعاً ضحايا، ومن هنا ظهرت

شخصية "الشسمه"، هذا الكائن الخيالي الذي تنسب إليه الجريمة، أو المجرم المطلق، فكل يرى أن هذه الجرائم ترتكب من أطراف أخرى، وهذا الطرف مكون منا جميعاً، ففيه قطعة شيعية وأخرى سنية وتركمانية وكردية، وغيرها .. هذا هو القاتل الذي يرمز إلينا جميعاً، وهو في نفس الوقت مكوّن من أجزاء الضحايا، ويرمز إلينا جميعاً باعتبارنا ضحايا.

"الشسمه" يتشابه في الشكل مع "فرانكشتاين"، لكنه في البنية العميقة كائن ينتمي إلى البيئة المحلية العراقية، ولاحقاً بات يرمز للبيئة الاجتماعية والثقافية والسياسية العربية بشكل عام، وبكونها مجتمعات متنوعة تعاني من ذات الخطوط العامة للمشكلة العراقية، حتى في المجتمع الليبي الذي في تركيبته المجتمعية طائفة واحدة، الذي بات يعاني من حرب لا يعرف لها بداية أو نهاية".

• وماذا عن فكرة المخلّص؟

مجتمع الرواية ينتمي لطبقات متعددة، من القاع (شخصية هادي العتاك، وأم دانيال، وغيرهما)، وصعوداً إلى مؤسسات السلطة (شخصية العقيد المتواصل مع الأميركيين) .. لكل شخصية علاقة، بشكل أو بآخر، بـ"الشسمه" (فرانكشتاين البغدادي)، للإشارة إلى أن الجميع مشتركون في صناعته.

الرواية تناقش فكرة المخلّص، ففي أزمات الشعوب اليائسة تبرز ظاهرة البحث عن حلول سحرية، خاصة الأزمات المتفاقمة حتى على الصعيد الزمني حيث ترتفع نسبة الإحباط، وفي مجتمعاتنا التي لم تأخذ حظها في التقدم الفكري والمعرفي بشكل حقيقي، تبرز فكرة المنقذ أو المخلص عميقاً لديها، ولهذا ظهور الدكتاتوريات لدينا ليس بالأمر الغريب، فثقافتنا المجتمعية تعزز السلطة الفردية، وأن يكون الحل بيد فرد واحد في مواجهة جمعية الحل وتعدد الأطراف المشاركة في صياغته، أي في تقرير مصيرهم، وبالتالي فإن واحدة من مقولات الرواية الأساسية إنه "حتى لو كان ملاكاً هذا المخلّص، فإن السلطة اللامحدودة له ستحوله إلى شيطان يرتكب بالضرورة أخطاء كارثية، ويتحول إلى دكتاتور في النهاية"، فالخلاص الفعلي هو الخلاص الجمعي، بحيث يتحمل الجميع المسؤولية، كما في المجتمعات الحديثة القائمة على المسؤولية الجماعية.

في العام ٢٠١٠ وما قبله بعامين، وما بعده حتى الآن، انتعشت في المجتمع العراقي فكرة القائد الضرورة، أو القائد المخلّص، وهذه الحالة ساهمت وتساهم في إنتاج دكتاتوريين جدد، ولا يمكن علاج هذه المسألة إلا بنهوض المجتمع على المستوى السياسي، أما على المستوى الأخلاقي فلا بد للجميع بالشعور بالذنب، وهو ما لم يحدث حتى الآن، فلا شعور جمعيا بالمسؤولية عما حدث ويحدث في العراق، وهذا ينطبق على العديد من الدول العربية التي تعيش أزمات شبيهة بالأزمة العراقية، وإن في وقت لاحق لها، وكأن لا علاقة لنا بما يحدث، وبالتالي نستسهل إلقاء المسؤولية

على جهات بعينها، وعلينا أن نعترف بإصرارنا على تجاهل مسؤوليتنا في هذا الاتجاه... "إذا كان ثمة أزمة، ويعتقد الجميع أنهم على حق، فإن الجميع على خطأ".

• ذكرت في الرواية أن "الخوف يصنع الوحوش" ... هل هو الوجع العراقي؟

أرى فعلاً "الخوف يصنع الوحوش" .. للأسف لا يزال العراق يقع تحت دائرة الخوف، وهو خوف لم يبدأ منذ العام ٢٠٠٣، مع الاحتلال الأميركي للعراق، بل بدأ منذ سقوط الملكية، وهذا السقوط التدريجي للدولة، وهو سقوط عميق لا يمكن تصحيحه بـ"كبسة زر"، بل يحتاج إلى جهد حقيقي يستغرق زمناً طويلاً، حتى تتحول مؤسسات الدولة إلى مؤسسات حقيقية راسخة، بحيث يشعر المواطن تحت ظلها بالأمان ويغادر الخوف، محيلاً إلى مقولة للخليفة علي بن أبي طالب "لا تستشر جائعاً، ولا خائفاً، ولا محتصراً (أي يتملكه شعور بإفراغ زوائده الجسدية في المرحاض)، بمعنى لا تتوقع الحل من شخص مأزوم، فتحت وطأة الخوف لا يستطيع أي شخص اتخاذ قرارات سليمة، بل سيكون الخوف هو من يملي عليه، ولو دون وعي، قراراته.

ولهذا كانت قرارات البناء السياسي ما بعد العام ٢٠٠٣، وإن كانت السلطة العراقية خرجت عبر صناديق الاقتراع في انتخابات حرة، لكن الحكم كان جمهوراً واقعاً تحت سطوة الخوف، فهناك خوف حرك الناس تجاه اختياراتهم هذه، وهذا الخوف لا يقودهم فحسب إلى خياراتهم السياسية، بل يكاد يشكل قراراتهم أو خياراتهم في مختلف نواحي حياتهم.

• وماذا عن تحولات العتاك، وإسقاطاتها؟

العتاك في الرواية هو صانع الحكاية، ولا يضطلع بأية رؤى أو مهام أخلاقية، لكن الغريب والمثير أن القصص المؤثرة في واقعنا، أو الكثير منها بدأت بهذه الطريقة الاستعراضية التي انطلق منها العتاك للفت أنظار مرتادي المقهى الذي يرتاده .. كثير من الكائنات الخيالية اخترعت في هذه الفترة، وكثير من الأحداث الفنتازية حصلت فيها، واحدة منها أن شخصاً في إحدى المحافظات العراقية ادعى أنه المهدي، وآمن به البعض، والطريف الذي يندرج في إطار "الكوميديا السوداء"، أنه وذات مرة، وبينما كان يسير برفقة أتباعه في أحد الشوارع، استوقفه أحدهم على دراجة نارية، وسأله إن كان هو "الإمام المهدي"، وحين أشار بالإيجاب، عاجله بكلمة "طز"، أو تلك الحكايات التي نسجت خلال معارك الأميركيين في الفلوجة، ومنها أن كائنات هبطت من السماء لتقاتل قوات الاحتلال الأميركي، والأمر ينسحب على رواية العنكبوت الضخم الذي هبط من السماء ليساند جيش المهدي في معركته ضد الأميركيين في النجف، وبدأ في التهام عناصر الجيش الأميركي، وللأسف، بات يتعاطى معها الكثيرون كوقائع، وهذا جزء من المخيال الشعبي المعاصر، الذي اتجه نحو الفنتازيا تحت وطأة الخوف.

في الرواية كان من المستحيل على السلطات العراقية إلقاء القبض على شخصية خيالية كـ"الشسمه"، ولرغبتها في إنهاء أزمة هذا القاتل الذي يثير رعب الناس في بغداد، اتجهت نحو اعتقال صانع الـ"شسمه"، وهو هنا "العتاك"، وفي الحقيقة الكثير من المعالجات في العراق لأزمات حقيقية تجري على هذه الشاكلة، وبعضهم لا علاقة له من قريب أو بعيد بأية حوادث أو أزمات، فالسجون العراقية مليئة بمثل هؤلاء، وهذا يعكس هشاشة النظام بسلطاته كافة .. شخصياً عانيت من كون اسمي الثلاثي يتطابق مع اسم أحد المطلوبين للسلطات العراقية، وعانيت لسنوات حتى تم تزويدي بوثيقة رسمية تفيد بأنني لست الشخص المطلوب للاعتقال، وأنني لست المتهم .. نحن نعيش فنتازيا مؤلمة ومحزنة، وهذا انعكس في رواية "فرانكشتاين في بغداد".

الرواية والجائزة مرة أخرى

• مع انتظار الرواية الجديدة .. ما آخر أخبار "فرانكشتاين في بغداد"؟

تم بشكل رسمي الاتفاق على الترجمة الانكليزية للرواية، بعد أن اشترت دار «وون وورد» البريطانية بالتعاون مع "بنغوين" الشهيرة حقوق الترجمة، ويعمل على الترجمة الآن جوناثان رايت، وهو واحد من ابرع المستعربين البريطانيين، وحاصل على جوائز عدة في مجال الترجمة إلى الانجليزية. كما وقعت عقود كل من الترجمات الفرنسية والاسبانية والايطالية، فيما باتت الترجمة اليابانية كاملة على يد البروفيسور نتسومو اوكادا، وما زال التفاوض جارياً من أجل اختيار دار نشر يابانية مناسبة لنشر هذه الترجمة، وهناك مفاوضات على ترجمات أخرى لم يجر الاتفاق حولها بعد.

الرواية دخلت ضمن مادة البحث الاكاديمي لعدد من الرسائل الجامعية في جامعة قسنطينة الجزائرية وأصفهان الايرانية، وهناك عدد من الرسائل الجامعية في العراق، وخاصة في مجال الادب والعلوم الاجتماعية اختارت الرواية كعينة للبحث، كما أنها قدمت كعينة في رسالة طالب عراقي يدرس الماجستير في احدى الجامعات البريطانية. تحرر من الضوء.

• ما الذي يمكن ان تفعله جائزة بكاتب ؟

أشياء كثيرة تغيرت.. لا شك ان الجائزة وصداها الاعلامي جعلني وجعل الرواية في دائرة الضوء، وهذا ما سهّل التعرف إلى الرواية، وبالتالي قراءتها من قبل قطاع واسع من القراء، وهذا بالتأكيد طموح كل روائي وكاتب، وأعني أن يصل الى اكبر مساحة ممكنة من القراء. الشيء المهم بالنسبة لي أن الرواية حققت قبولاً لدى قطاعات متنوعة من القراء، حتى أن هناك مراهقين قرأوا الرواية وتفاعلوا معها، رغم ان الرواية غير موجهة الى هذه الشريحة. الشيء الثاني المهم بالنسبة لي، ان

الرواية صارت نافذة لتعريف قراء عرب واجانب على جانب من الاوضاع العراقية الحالية، وكم كنت سعيداً بالانطباعات التي تحدثت عن مساهمة الرواية في فهم ما يجري داخل العراق من اوضاع معقدة، وأنها زادت من التعاطف الانساني مع المحن التي يعيشها المواطن العراقي اليوم ... كما أنها فتحت أعين البعض على الادب العراقي الحديث، وزادت من فضولهم باتجاه قراءة الروايات العراقية، وصاروا يبحثون عن الروايات العراقية بغض النظر عن كون من كتبها سعداوي أو غيره، وهذا أمر مهم جداً كما اعتقد. على المستوى الشخصي اضطررت الى التحول الى سكرتير لـ «فرانكشتاين في بغداد»، للرد على الرسائل والاستجابة الى المناسبات والدعوات التي توجه إليّ، والتواصل مع الاعلام، وهو رغم أنه من المكاسب الناتجة عن الفوز بالجائزة، إلا انه أبعدني عن مشاريعي الكتابية، وأربك جدول أعمالي والتزاماتي، ومن حسن الحظ أنه أمر موسمي.

• هل أنت منزعج من الشهرة على الصعيد الشخصي، مثلا في الشارع أو التاكسي أو السوبرماركت ام انه احساس جميل ان يكون الشخص معروفا؟

بالتأكيد هو شعور جميل.. مبادرة اناس في الشارع لمصافحتك والسلام عليك أو التقاط صور معك هو تعبير عن حب وتقدير. ولكن هؤلاء ينقسمون إلى فريقين؛ الأول هو من تعرف علي من خلال التغطية الاعلامية في التلفزيون أو الصحف. إنه يتعرف علي في الشارع او السوق او المكان العام كشخصية قامت بشيء جيد، من دون معرفة التفاصيل. أما الفريق الثاني فهم اولئك الذين اقتنوا الرواية وقرأوها وأعجبوا بها.

النجومية التي تأتي بها وسائل الاعلام تبقى موسمية.. ضوء شديد لفترة محددة ثم تنشغل وسائل الاعلام بمادة جديدة، أما الذي تعرف عليّ من خلال كتابي فبالتأكيد سأبقى حاضراً لديه لوقت أطول. بالنسبة لي لا أتقبل الأمر بمجمله دون قلق، فبالإضافة الى تقييد الحرية الشخصية، بسبب قدرة الآخرين على رصدك والتعرف عليك، فاننا نعيش في بلد مضطرب.

كنت خلال سنوات طويلة أحاول العمل والحركة وراء الستار، مجرد اسم في صحيفة أو صوت في مذياع، أو معد لبرامج لا يظهر اسمي عليها، حتى أدوات عملي كمراسل في بغداد لاذاعة البي بي سي (٢٠٠٥-٢٠٠٧)، كنت أحملها في كيس تسوّق عادي، حتى لا أثير انتباه الآخرين. وبالنسبة لشخص من هذا النوع لن يستطيع ابعاد القلق عن نفسه، حين يوقف سيارة أجرة آخر الليل في بغداد، فيبادره السائق قائلاً: انا اعرفك.. رأيتك في التلفزيون.. أن تكون "رجلاً خفياً" يعطيك حرية أكبر في الحركة والحياة، خصوصاً في بغداد.

• كثيرون لا يعرفون حكاية استقالتك لإكمال الرواية .. هلاّ حدثتنا عنها؟

في فترة سابقة كنت مرتبطاً بالعمل مع إحدى المؤسسات الإعلامية في بغداد .. هذا العمل كان يأخذ كل وقتي، ولكن في مرحلة معينة أحسست أن عملي أصبح عائقا أمام إتمام اللمسات الأخيرة على الرواية، وأدركت أنه بات يجب عليّ التفرغ لإنجاز "فرانكشتاين في بغداد".

لم يكن بالإمكان أن أنهي الرواية وأنا أعمل عملاً ميدانياً يحتاج إلى سفر للمحافظات، وتصوير في الشوارع، حيث كنت أعمل في تصوير البرامج الوثائقية، فقررت أن أقوم بخطوة مجنونة، وهي الاستقالة .. كان لديّ مبلغ في البنك يكفيني لعدة أسابيع .. شجعني بعض الأصدقاء على ذلك لأنهم مؤمنون بأن هذه الرواية سيكون لها شأن مهم.

وفعلاً قدمت استقالتي، وسحبت جزءاً من المبلغ الموجود في البنك، وسافرت إلى مدينة السليمانية في كردستان العراق، وحجزت في فندق هناك، ولم أخرج منه إلا لتناول الطعام فقط .. فرّغت نفسي تماما، وخلقت لنفسي أجواء تساعدني على الاستغراق في الكتابة إلى أن أنهيت العمل خلال ١٥ يوماً.

• تناقل بعض وكالات الأنباء خبراً حول نجاتك بأعجوبة من تفجير إرهابي قبل حفل "البوكر" بأيام .. ما حكاية هذا التفجير؟

كنت برفقة صديق لي في أحد مقاهي العاصمة بغداد، والمعروف بأنه مقهى للمثقفين والفنانين .. أشار لي صديقي بأن أرافقه لتناول الطعام خارج المقهى، وما أن غادرنا المقهى مبتعدين عشرات الأمتار، حصل التفجير .. علمنا فيما بعد أن انتحارياً قام بهذا التفجير، الذي أودى بحياة سبعة من رواد المقهى، وأن المستهدف من التفجير كان مثقفي وفناني بغداد .. لو كان التفجير في وقت الذروة لكان عدد الضحايا أكبر .. هذه حكاية شبه يومية في العراق، وتبدو وكأنها فصل من فصول روايتي، لكن هذا ما حصل بالفعل، حتى إن بعض الصحافيين كتب "أحمد السعداوي يعيش روايته".

• لابد أنك قرأت روايات البوكر العام الماضي ولربما الروايات المنافسة .. ماذا عنها؟

حقيقة، ولضيق الوقت، لم أقرأ الروايات الخمس المنافسة لرواية "فرانكشتاين في بغداد"، لكن بالنسبة لرواية "ساق البامبو" لسعود السنعوسي الفائزة في "بوكر ٢٠١٣" فهي رواية مبتكرة وجديدة وذات بعد إنساني رفيع، ولفتتني رواية "يا مريم" لسنان أنطون فهي رواية مهمة برأيي.

• باتت روايات "البوكر" العربية، وأخيراً روايتك تلقى رواجاً كبيراً في فلسطين رغم الحصار المفروض عليها من الاحتلال، كونها صادرة عن دار نشر لبنانية .. باتت "فرانكشتاين في بغداد" هدية قيمة عندنا؟

هذا يسعدني جداً، خاصة أن الجمهور الفلسطيني كما أعلم جمهور ذواق وناقد، وهو من تربى على إبداعات كبار المثقفين على المستوى العالمي كمحمود درويش، وسميح القاسم، وغسان كنفاني،

وإميل حبيبي، وجبرا إبراهيم جبرا، وغيرهم الكثير .. حضور روايتي في فلسطين المحاصرة له معانٍ كثيرة .. الثقافة فعل مقاومة، والرواية فعل إنساني، وهو ما يميز الشعب الفلسطيني المحاصر، ويحقق كل أحلامه سريعاً، خاصة أن يزول الاحتلال ويعيش الشعب الفلسطيني حراً على كامل أرضه .. ما أريد قوله أن شعباً يقرأ هو شعب حي، ولا يمكن أن يقهر.

سياسة من وحي الأدب

• وصفت مجلة النيويوركر الاميركية روايتك بأنها تمثل اليوم رأس حربة في رواية ما بعد الربيع العربي، والتي تمثل جيلاً جديداً من الكتاب الروائيين في العالم العربي.. هل كنت تفكر بالربيع العربي .. هل هناك مزايا معينة لرواية من هذا النوع؟

الوصف الذي استخدمته المجلة جاء بسبب نشر الرواية ثم فوزها في العام ٢٠١٤، أي ما بعد قيام الربيع العربي ثم تداعيه واضمحلاله كما نرى اليوم، وبالتأكيد لم أكن افكر بهذا الوضع السياسي العام اثناء كتابة الرواية. ذكرت في عدة حوارات ولقاءات سابقة أنني بدأت بكتابة الرواية في منتصف العام ٢٠٠٨، ووقتها لم يكن هناك أي وجود لربيع او خريف عربي، واستغرقت كتابة الرواية اربع سنوات حتى اكتملت وصارت جاهزة للنشر. المثير في الأمر أن الرواية التي كانت تتحدث عن وضع عراقي خاص لا وجود له في منطقة عربية أخرى، صار لاحقاً وضعاً عاماً، فانهيار النظم الديكتاتورية والشروع بعهد الديمقراطية بمصاحبة يقظة الانقسامات الاجتماعية، وحضور أشكال مروعة من العنف والدمار، والذي هو وصف للوضع العراقي سياسياً واجتماعياً صار انموذجاً مكرراً في عدة بلدان أخرى. أنا كنت افكر بوصف جانب من المشكلة العراقية، ويبدو أن هذا الوصف أفاد آخرين في اضاءة اوضاع عربية عامة.

• هل على الرواية الجديدة اليوم ان تكون سياسية لكي تنجح؟ هذا الامر لا يشمل روايتك فقط، وانما العديد من الاعمال الروائية العربية الجديدة.

الموضوعة السياسية بحد ذاتها لا يمكن ان تكون سبباً في نجاح او رواج عمل روائي. الرواية في نهاية المطاف هي عمل فني، وتخضع في المحاكمة والنظر والفحص الى تاريخ النوع الروائي ومجمل الاشتغالات والاساليب والأدوات الفنية، وكذلك اطلالة الرواية، باعتبارها عملاً أدبياً معنيا بالانسان ومشاغله، على المشاكل العميقة لدى الإنسان بغض النظر عن السياق الاجتماعي أو السياسي والتاريخي الذي يتحرك فيه. لا أومن بصلاحية رواية ما لأنها تتحدث عن مشكلة راهنة، وانما باعتبار المشكلة الراهنة تكشف مشاكل جوهرية أعمق لدى انسان ما في مكان وزمان محددين.

غير أن الفن الروائي بشكل عام صار اليوم، اكثر من ذي قبل، مرتبطاً بالفضاء الذي يتحرك فيه، بحيث من الصعب أن يتجاهل ما تبثه وسائل الاعلام والميديا ووسائل التواصل الاجتماعي، والمعالجات التي

يتم طرحها حول مجمل قضايا الانسان، كذلك حضور الصورة باعتبارها ناقلا أساسيا للمعلومات، بحيث تساهم في تنميط الوعي العام وطريقته في تلقي الرسائل المتضمنة في الميديا والفنون والآداب.

وبالعودة الى موضوع السياسة، فإننا نراها حاضرة في كل تفاصيل حياتنا، وحتى لو لم تتحدث الرواية بشكل مباشر عن قضايا سياسية، فإن آثار هذه السياسة تبقى حاضرة ومؤثرة في تفاصيل القصص المروية، حتى وإن بشكل غير مباشر. ومن المهم ليس هو تناول أو عدم تناول السياسة داخل الرواية، وانما كمية المعرفة وعمق النظرة التي يقدمها الروائي تجاه القضايا التي يطرحها.

• بعيداً عن الرواية .. ماذا عن الواقع السياسي في العراق، وهل من انعكاسات للاحتلال الأميركي على عراق اليوم؟

الاحتلال الأميركي زاد مساحة الرعب ... من وجهة نظري الشخصية، لا بد من طرح سؤال حول ما إذا كان الأميركيون يقصدون ذلك، أم أنهم ارتكبوا أخطاء ما فحسب، وفي كلتا الحالتين، هم من أفسحوا المجال لزيادة مساحة هذا الخوف، أو حتى الرعب الذي بسط سطوته على جموع العراقيين .. كنت كتبت مقالاً في صحيفة "نيويورك تايمز" الأميركية في الذكرى العاشرة للاحتلال الأميركي على العراق، وكان من بين ما طرحه، أن "الأميركيين، ومنذ نيسان ٢٠٠٣ إلى تموز ٢٠٠٥، لم يكونوا جادين في فرض القانون في الشارع العراقي، حتى إن أحد أركانهم العسكرية اعترف في رسالة رسمية في تموز ٢٠٠٥ بأن "المهام الأمنية للجيش الأميركي تغيرت الآن من حماية قطاعاتنا العسكرية إلى حماية المواطنين العراقيين"، وهذا اعتراف أنه على مدار أكثر من عامين الشارع العراقي لم يكن يحظى بحماية من الجهة المسؤولة عن توفير الحماية له، وأعني الأميركيين المسؤولين دولياً عن القيام بذلك، فالمجتمع الذي لم يحصل على الحماية الأمنية يحاول اقتراح حلوله الخاصة، التي ظهرت على شكل ميليشيات، تكونت بعد نواة دوريات الحراسة في أحياء بغداد، وهذه الميليشيات بات لها أهدافها الخاصة، وليس تلبية احتياجات المدنيين، وهكذا "دخلت على الخط" جهات دولية استثمرت هذه الميليشيات، وتحت عين الأميركيين، وهناك من وجد قصدية في ذلك من أجل تهيئة الوضع العام في العراق باتجاه الحرب الأهلية، ففي عامي الفراغ الأمني تم العمل على تهيئة المجتمع العراقي من مجتمع يبحث عن سلام مجتمعي وسياسي، إلى مجتمع مسلح ومجهز للقتال.

في كل الأحوال، ما حدث فتح فوهة الجحيم، حتى إن أطفالاً كثراً تحولوا إلى قتلة شرعيين لا يرون أنفسهم مجرمين. كان يجري الحديث عن أن النظام السابق في ثمانينات وتسعينات القرن الماضي عمد إلى عسكرة المجتمع، لكن الوضع الآن فاق عسكرة المجتمع باتجاه مجتمع يشارك في الجريمة، بنسبة أو بأخرى، وحتى نغادر هذا الوضع والعودة إلى السوية الإنسانية يحتاج إلى مجهودات كبيرة، خاصة أنه وضع سوداوي، فالصورة قاتمة.

نثر وشعر

• البعض يربط الكتابة بما يسمى الإلهام أو الوحي سواء كان نثراً أو شعراً .. هل توافق على ذلك؟

لا .. لا يوجد إلهام أو وحي ينزل وتنزل معه الرواية، فالرواية عمل مركب .. عمل تجميعي .. وعمل يستغرق وقتاً، لا أنكر أن الموهبة والخيال لهما دور كبير وحاسم في إنتاج الأعمال العظيمة، ولكن دون العمل لوقت طويل، ودون التأمل وجمع تفاصيل، وبذل كل الجهد، لا تنتج الأعمال العظيمة.

• ولكنك بدأت شاعراً؟

نعم ... التقاليد الشعرية في العراق تكرست منذ العصر العباسي .. الثقافة العراقية ثقافة شعرية .. الشعر طاغٍ في العراق، أي شاب يسعى للبروز على مستوى المشهد الثقافي العراقي، يجد أن آباء الثقافة العراقية هم شعراء، وبالتالي يصبح شاعراً بعد أن يتتلمذ على أيديهم .. أكثر من ٨٠٪من الأدباء العراقيين بدأوا شعراء، فالروائيون العراقيون أغلبهم بدأوا شعراء .. لي ثلاث مجموعات شعرية صادرة في تسعينات القرن الماضي، وهي الفترة التي سبقت دخولي عالم الرواية، إن جاز التعبير.

العراق أبو الحداثة الشعرية .. أرى أن الثقافة القوية الحية هي الثقافة التي تحتوي على الشعر الجيد، والرواية الجيدة، والقصة الجيدة أيضا .. اليوم، وبعد خمسة عشر عاماً من التجريب في الرواية، ثمة حضور قوي للرواية العراقية في المشهدين العربي والعالمي.

• ولماذا ترفض تقديم أي من رواياتك حتى لو كان التقديم لكاتب معروف؟

لا أرفض تماماً، ولكني أرى أن العمل الأدبي لا يحتاج لذلك، فالكاتب لا يحتاج إلى تزكية من كاتب معروف كي تنشهر أعماله، كما أني أرى أن المقدمة يجب أن يكون لها مناسبة معينة، فعلى سبيل المثال رواية "مائة عام من العزلة" لماركيز طبعت نسخة منها في دار نشر مكسيكية كبيرة، وكتب المقدمة لهذه النسخة ماريو باراغاس يوسّا وكانت لهذه المقدمة مناسبة، وهي مرور عقد على صدور الطبعة الأولى من هذه الرواية.

سؤال الكتابة

هل تكتب لقارىء بعينه؟

أعتقد أن الكثير من الكتاب المحترفين يرتبكون أمام أسئلة من هذا النوع، لأنهم حينما شرعوا في الكتابة كانوا ببساطة يشعرون بأن لديهم القدرة على الكتابة والتميز فيها، وامكانية ان يثيروا اعجاب الآخرين؛ من الحلقة الصغيرة من الاصدقاء والأقارب، ثم يأتي حلم النشر الذي يجعلهم

مرئيين من قراء مجهولين غير معلومي العدد، وهذا هو المفهوم البسيط للشهرة. لكن، فيما بعد، يجد هذا الكاتب نفسه أمام مطاليب ثقافية تفرض عليه أن يضع أجوبة أكثر جدية وعمقاً من مجرد الرغبة باثارة إعجاب القراء.

كأن يتحدث عن الالتزام الاجتماعي والسياسي، والرغبة في المشاركة بالتحولات، ومحاولة التصحيح وتطوير الوعي وما الى ذلك. أو محاولة الاضافة على النوع الفني، القيام بنقلة وتطوير الكتابة الأدبية، إضافة تقنيات أساليب جديدة.

وهنا يغدو التفكير بأسئلة "لماذا أكتب ولمن أوجه كتابتي" أكثر كآبة وأقل متعة. لا أنكر أنني أفكر بالأجوبة الكبيرة ذات المحمول بالغ الجدية، ولكني، حتى استطيع الاستمرار بالكتابة، احاول دائماً تذكر الشعور الذي كنت فيه، في العتمة، وانا أخربش على أوراقي قصيدة أو قصة قصيرة، سعيداً بما أفعله، منتظراً اللحظة التي انتهي منها من النص كي أعرضه صباح اليوم التالي على أصدقائي في المدرسة الثانوية، متوقعاً أن يثير أعجابهم.

أحاول تذكر حس المشاركة البسيط مع أناس معلومين عندي، وأن أتذكر أن رغبتي بالحصول على مشاعر كثيفة، وإحساس أعلى بالحضور الوجداني والذهني، هي ما تحرضني، ليس على الكتابة فقط، وانما على مجمل النشاطات الانسانية المعتادة التي أقوم بها كإنسان. وما أتمناه دائماً أن أنقل هذه التجربة في الحضور الوجداني والذهني الى الآخرين، وأن اشاركهم مشاعري الكثيفة، فهذا أكثر أهمية من مجرد القصة نفسها، أو أي انهمام بالاساليب والطرائق والتقنيات. أتذكر غالباً تجربة الكتابة ومتعة الاكتشافات، ولكني أتذكر بمتعة أيضاً، تلك الطرق التي اتبعتها، والمصاعب التي تجاوزتها، في سبيل تهيئة الطرق الموصلة الى طاولة الكتابة، وتحضير القصة مثل عجينة مختمرة على منضدة خبّاز.. معاودة الاتصال بهذه المتع البسيطة، هو ما يجعلني أفتح دفاتري أو حاسبي المحمول كل نهار، كي أشرع بالكتابة.

• أخيراً .. ما هي الرواية؟

الرواية متخيل عن الحياة، لذلك يجب أن يكون مصدرها الحياة .. الرواية هي فن التفاصيل .. التفاصيل التي ربما تراها الفنون الأخرى تافهة .. الرواية تعتمد على نثر الحياة، حتى يكتب الروائي بصدق وإذا أراد أن يكون مؤثراً فيجب أن تكون شخوصه من الحياة.